الفصل الخامس

نماذج من المفكرين

● تقـــدمة :

كان بودنا أن نضرب مثلا من عهد الصحابة أو من عهد التابعين ، فذلك أولى فى الاقتداء بعد رسول الله ﷺ ، لكن الأمر يحتاج الى جهد كبير نرجو أن نوفق اليه مستقبلا ان شاء الله أو يوفق اليه غيرنا من الكاتبين .

وقد اخترنا — لهذه العجالة — ثلاثة : أولهم : الامام أحمد ابن حنبل،وثانيهم الامام ابن تيمية،وثالثهم من العصر الحديث:أخانا الكبير الكريم الاستاذ سيد قطب — رحمهم الله جميعا ورضى عنهم .

وعندما اخترت الثلاثة .. لم يكن عندى معيار اختار به .. انما استخرت الله .. وبعد أن اخترت تبينت .. ان الثلاثة امتحنوا .. والمحنة للمفكر أو الداعية أشبه بالنار التى تجلو عن الجوهر الصدأ .. ومن ثم فان فكره وقلبه يزداد صقلا ، ويزداد اشعاعا ونورا .. ومن ثم فجرت المحن فى حياة الثلاثة طاقاتهم وزادتهم ايمانا وتسليما .

ولقد عاش ابن حنبل بين القرن الثانى والثالث .. فى خير القرون !

وعاش ابن تيمية بين القـــرن السادس والسابع فى فترة امتحنت فيها الأمة بغزو التتار كما امتحنت بفتن من الداخل .

وعاش سيد قطب فى القـــرن الرابع عشر فى فترة بلغ فيها التسلط على قيم الأمة أقصى صوره ، وحكم فيها مصر فرعون جديد لا يقل تجبرا وتكبرا عن جده الأول !

ولعلنا — بعد ذلك — نلمس الأمر بشىء من التفصيل !

* * *

أولا : أحمد بن حنبـــل

(١٦٤ — ٢٤١ هـ)

● حيـــــاته :

يمتد نسبه الى بكر بن وائل الذهلى الشيبانى ، وكان والده محمدا أبا عبد الله من أجناد مرو (فى أفغانستان) مات شابا نحوا من ثلاثين سنة ، وربى أحمد يتيما ، لكن الله من عليه بخلق كان يحسده عليه الآباء الذين يأتون بمربين لأبنائهم .

طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة فى العام الذى مات فيه مالك رضى الله عنه ، وكأن الله أراد أن يخلف الأمة فيه خيرا ، وقد بلغ شيوخ أحمد حول ٢٨٠٠ شيخا ، كما بلغت رحلاته فى طلب العلم الى البصرة خمسة مرات ، والى الحجاز خمس مرات (حيث التقى بالامام الشافعى رضى الله عنه) وحج خمس حجج

منها ثلاث مرات راجلا ، كما ارتحل الى صنعاء فى طلب العلم ، وقبل أن يعمل (حاملا) ليجد قوته عند طلبه العلم !

ثم جلس للفتيا والحديث بعد أن بلغ الأربعين ، وكأنه سن الرشد العقلى الذى اختار فيه رب العـــالمين خاتم أنبيـــائه ببعثه بالرسالة !

● **محن أحمد :**

بدأت محنة أحمد منذ عهد المأمون بعد اذ تسلط عليه المعتزلة فقال بخلق القرآن ، وأبى أحمد أن يقول غير الحق ، وناظر أكثر من مرة ، ومع اظهار الله له أبوا الا أن يسجنه حتى حين !

وامتدت المحنـــة الى عهد المعتصم .. ووضعت فى رجليه الأغلال حتى أثقلته ، وضرب بالسياط وأثخنته الجراح ، وبقيت جراحه معه حتى لقى الله .

وقد كان مكثـــه فى السجن ثمانية وعشرين شهرا ، وكان خروجه فى عهد الواثق ، ثم عاد الى دروسه وفتاواه فى عهد المتوكل ، بعد أن أظهر السنة .

● **فـــكره :**

خلف الامام أحمد مسنده .. فى الحديث ، وكانت روايته أكثر من فقهه ، وكان له فقهه الذى بنى عليه تلاميذه .

وقد اهتم بفتاوى الصحابة ، وجعل لكل واحد منهم بابا فى مسنده لفتاويه واقضيته .

وكانت له اصوله التى درسها على شيخه الامام الشافعى — رضى الله عنهما ..

وكانت له مناظراته مع مخالفيه خاصـــة فى موضـــوع خلق القرآن .

بيد أنه يبقى بعد ذلك صدق أحمد ورجولته وايمانه مثلا يحتذى لأصحاب الدعوات ، اذ أبى أن يترخص رغم اكراهه ، وكانت لكلمة القاها أعرابى عليه فى رقبته طوق : يا أحمد ، ان يقتلك الحق مت شهيدا ، وان عشت عشت حميدا — كان لهذه الكلمة أثرها فى نفس أحمد ، فآثر الآخرة على الدنيا ، وصـــدق ما عاهد الله عليه ، فكان ممن ينتظر وما بدل تبديلا !

ولئن كان لنا أن نستعير كلمة فهى قول على بن المدينى : ان الله أعز هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة !

رضى الله عن أحمد ، وأجزل له العطاء ، بما نافح عن عقيدة هذه الأمة وكرامتها ، ورزقنا فى زماننا هذا بالصادقين من أمثاله ، انه على كل شىء قدير (١) .

* * *

---

(١) مراجع هذا البحث :

١ — سير أعلام النبلاء .

٢ — تاريخ بغداد .

٣ — تاريخ ابن كثير .

٤ — ابن حنبل — لأبى زهرة .

٥ — رجال الفكر والدعوة .

٦ — ترجمة الامام أحمد — مقدمة المسند .

٧ — بحث مخطوط للزميل الفاضل الشيخ محمد شريف الزنيق لطلبة القسم الجامعى بالمعهد العالى للدعوة .

ثانيا : ابن تيميـة

(٦٦١ ــ ٧٢٨ هـ)

● حيـــاته :

كان ميلاده عام ٦٦١ هـ وكانت وفاته عام ٧٢٨ فعاش بين ثلث القرن السابع وثلث القرن الثامن ، وحفظ القرآن والحديث ، وتعـرف على علوم اللغة والفقه ، وعاش عصرا زخـر بعلوم جديدة . من فلسفة وعلم كلام وتصوف ، وأصاب الناس فى عقائدهم كثير من الخلل والبدع ، فكان أحمد ــ رضى الله عنه ــ العـالم العامل المجاهد بقلبه ، ولسانه ، ويده . . .فكسر الحانات والخمور ؛ وجاهد ضـد التتار ، ونافح عن العقيـدة فى وجـه المتكلمة ، والمتفلسفة ، والمتصوفة !

● جهـــاده :

جاهد بيده كما قدمنا ، انكارا للمنكر ، أو دفعا للأعـداء .

وجاهد بلسانه جهادا مريرا ، دفاعا عن عقيدة السلف فى الصفات ، وضد غلاة التصوف ، وضد شد الرحـال لزيارة قبور الأولياء والصالحين .

واعتقل أكثر من مرة .

وكان آخـر اعتقاله فى قلعة دمشق حتى أسلم الروح فيها وخرجت الأمة كلها لوداعه .

● فكره :

خلف ابن تيمية اكثر من ثلثمائة مجلد على رواية ، وخمسمائة مجلد على رواية اخرى .

ولئن كان متبعا لمذهب احمد ، فقد كان مجتهدا داخل المذهب وخالف عنه فى بعض الأحيان ، ورأيه فى طلاق الثلاث واحدة ، وفى عدم وقوع يمين الطلاق .

ولئن كان لابن تيمية من الفكر الخصب ما سطره فى مجال العقيدة ، والتفسير ، والأصول ، والفقه ، فلقد كان التزام الكتاب والسنة والبعد عن الابتداع ومحاربته سمة بارزة لهذا الفكر .

ولئن أصاب ابن تيمية فى مواضع فلقد كان رأيه ضعيفا أو مرجوحا فى مواضع أخرى ، نذكر منها اعتداده بيمين الطلاق ، ونهيه عن شد الرحال حتى الى قبر رسول الله ﷺ ، ولئن عذرنا ابن تيمية لكثرة البدع فى عصره ، فان الحق أحق أن يتبع ، وحديث الرسول فى النهى عن شد الرحال قاصر — فى الفهم الصحيح — على المساجد الثلاث،لأن هذا هو الاستثناء المتصل وهو الاصل،ومن ناحية أخرى فان القول بغير ذلك يضع الناس فى حرج شديد من شد الرحال لقضاء مصالحهم أو صلة أرحامهم أو غير ذلك من الحاجات والمباحات،فضلا عن الندب لزيارة القبور:«لأنها ترقق القلب وتذكر بالآخرة » ، ولا ريب أن زيارة قبر رسول الله ﷺ يذكر بما هو أكثر من ذلك ... يذكر بدعوته ، وجهاده ، وبلائه مما يثير فى النفس التأسى برسول الله ﷺ ، وفرق كبير بين أن نبيح شد الحال

لزيارة قبر رسول الله ﷺ الى جوار الصلاة فى مسجده ، وبين أن نبيح البدع والمنكرات التى قد تقع فى ذلك ، وفى مقدمتها ما ننهى عنه اليوم من زيارة النساء واختلاطهن بالرجال عند القبر الشريف !

رحم الله ابن تيمية واجزل له العطاء فى جهاده وبلائه وصبره على محنه ، ولا نزال نذكر له كلمته « سجنى خلوة ، ونفيى سياحة ، وقتلى شهادة » (٢) !

* * *

ثالثا : سيد قطب

(١٩٠٦ — ١٩٦٦م)

● حيـــاته :

ولد عام ١٩٠٦ — فقد والده وهو يتابع دراسته بالقاهرة ، وفقد أمه بعد ذلك بقليل (عام ١٩٤١) فأحس بالوحدة والوحشة ، وكان لذلك تأثير فى انتاجه الفكرى ، وتخرج فى (كلية دار العلوم) التى تخرج منها من قبل الامام حسن البنا رحمه الله عام ١٩٣٩ ، وبين ذلك العام وعام ١٩٥١ كانت حياته عادية وانتاجه عاديا فيه المسحة الأدبية لكنه بعيد عن فجور الكثير من كتاب تلك الحقبة ،

---

(٢) مراجع البحث :
١ — كتب ابن تيمية .
٢ — ابن تيمية لأبى زهرة .
٣ — بحث مخطوط لأحد طلابنا بالدراسات العليا .

وبدأ يميل فى آخرها الى الخط الاسلامى الذى تبلور باصـــداره كتابه « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » عام ١٩٤٨ .

وفى نفس العام سافر الى الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد أسهمت الرحلة عكس ما فعلت فى نفوس آخرين .. لقد كان ميلاد الفكرة الاسلامية الصحيحة ابان هذه الرحلة ، خاصة بعد أن شاهد الأمريكيين يحتفلون بمقتل حسن البنا فى مستهل عام ١٩٤٩ !

وفى عام ١٩٥٣ انضم الى جمـــاعة الاخـــوان المسلمين التى اغتيل امامها برصاص الحـــكومة ، وتقدم الى الصف الأول من الجماعة ليكون مسئولا عن قسم الدعوة فى جماعة الاخوان ، ثم دخل المحنة الأولى (١٩٥٤ — ١٩٦٤) وبقى فى السجن عشر سنوات وفى المحنة الثانية (١٩٦٥) كان من أوائل المعتقلين ، ثم كان من أوائل الشهداء فى قافلة عام ١٩٦٦ .

● فـــكره :

لا يزال فكر سيد — رحمه الله — غضا طريا ، متداولا بين أيدى الجميع ابتداء من كتاباته الأدبية .

ثم كتاباته الاسلامية .

ثم « ظلاله » [تفسير للقرآن] .

ولقد ذهب فيه الكاتبون مذاهب شتى ، فمنهم قادحون بلغ بهم الجحد حد الطعن فى عقيدته ، ومنهم مادحون مغالون بلغ بهم الأمر أن قدموه على حسن البنا باعتباره « مجددا » لفكر الجماعة .

والحق الذى نراه فى هـذا الأمر وسط يدفع الشنآن : **«ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعـدلوا ، اعـدلوا هو اقـرب للتقوى »** (٣) كما أنه يدفع فى الوقت نفسـه الميـل والهوى : **« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والأقربين »** (٤) .

وهو أن سيد — رحمه الله — مثل قلب الاسلام النابض فى هـذه الحقبة ، ففاضت مشاعره : شعرا ، وادبا ، وكتابة ..

وهو فى هذا لا يزعم لنفسه — حتى نزعم نحن له — لا يزعم لنفسه درجة الاجتهاد التى فيها يجتهد فى أحكام الدين ، فيقول فيه بما لم يقله الأوائل !

كما انه لم يزعم لنفسه وهو يسطر ظلال القرآن انه يفسر أو ان له هذا الحق ، انما قال عن نفسه ، وقال بحق ؛ انه يسطر خواطره وهو يعيش فى ظلال القرآن [راجع مقدمة سيد قطب فى ظلال القرآن] .

أما ما نسب الى سيد — رحمه الله — من انه قال بكفر المجتمع فالعبارات فى ذلك أكثرها صيغت صياغة أدبية ، ومن ثم فان بناء أحكام فقهية عليها أمر صعب ، وقد أعلن شقيقه أن سيد — رحمه الله — لم يقل بكفر المجتمع (٥) .

أما القول بكفر الحكام الذين لا يحكمون بغير ما أنزل الله ، فهو أمر وارد لأن النصوص تحتمله ، فضلا عن انه سبقت اليه آراء

---

(٣) المائدة : ٨ . (٤) النساء : ١٣٥ .

(٥) الاستاذ محمد قطب فى مقال له بمجلة المجتمع الكويتية .

عدة فى تفسير (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)(٦).

أما الحديث عن الجاهلية فقد أفردنا له بحثا فى غير هذا المكان (٧) ، وهو ما نرى معه تجنب اطلاق هذا الوصف على المجتمعات باطلاق حتى لا يستتر لفظ « التكفير » باعتبار أن الجاهلية — ان أطلقت دون قيد — شملت جاهلية العقيدة الى جوار جاهلية النظام (٨) .

ويبقى — بعد ذلك — أن كلا يؤخذ منه ويرد الا صاحب هذا القبر — كما قال مالك رضى الله عنه — والاستاذ سيد — رحمه الله — بشر كغيره من البشر يخطىء ويصيب ، لكن خطأه فى حكم أو حكمين لا يعنى نسيان فضله فى مجال الدعوة الى الله ، ومجال الفكر الاسلامى الخصب الذى أمده سيد رحمه الله بما لم يمده به أحد فى حياته ، ولئن سبقه الامام البنا رحمه الله فكرا وتنظيما ، فقد كانت كتابات سيد رحمه الله شارحة لكتابات البنا المركزة ، ونافثة الروح فى جسد الأمة الهامد الذى اثرت فيه جراح الطغيان على يد اطغى حكام عصره جمال عبد الناصر . وفى النهاية فان كثيرين ينسون ما كان سيد يحرص عليه ويلتزم به أنه اعتبر نفسه دائما

---

(٦) المائدة : ٤٤ .

(٧) راجع تفسير ابن كثير وتفسير الجامع لأحكام القرآن عند هذه الآية وراجع كذلك : فى ظلال القرآن وراجع رسالتنا «المشروعية الاسلامية العليا » .

(٨) نحو نظرية للتربية الاسلامية — للمؤلف — نشر مكتبة وهبة .

جنديا من جنود الدعوة التى يتقدمها قائد هو المرشد العام للجماعة ، وقد كان سيد يعرض عليه كتاباته ليقرها قبل أن يرسلها الى الناشر ـــ عـــدا كتاب معالم فى الطريق ـــ كما قرات فى خطاب للمرشد العام .

وذلك فضـــلا عن أن الدور الذى قام به ســـيد رحمه الله فيما نسب اليه فى قضية عام ١٩٦٥ انما كان بتكليف من المرشد العام ، ولم يكن اجتهادا شخصيا من سيد رحمه الله .

رحم الله القائد .. ورحم الله الجندى .

وأجزل للجميع العطاء .

* * *